الحمام الزاجل وأهميته فى عصر سلاطين المماليك

للدكتور نبيل محمد عبد العزيز

مدرس تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب — جامعة أسيوط

تمهيـــد :

جاء فى مختار الصحاح :

(الحمام عند العرب ذوات الأطواق (مثل)[1] الفواخت ، والقمارى ، وساق حُر ، والقطا ، والوارشين وأشباه ذلك .

الواحدة « حمامة » يقع على الذكر والأنثى .

وعند العامة أسها الدواجن فقط . وجمع الحمامة : « حمام » ، و« حمامات » ، و « حمائم ») .

ومن هذا التعريف يفهم أن لفظ « الحمام » ومفرده « حمامة » يطلق فى اللغة على أنواع عديدة من الطيور تدخل فى مجموعة واحدة وهى « ذوات الأطواق » .

وقد أطلق فى اللغة لفظ « المطوَّقة » على الحمامة التى فى عنقها طوق .

ومها يكن من أمر ، فإننا فى بحثنا هذا إنما نعنى طائر الحمام بمعناه الشائع المعروف الذى ينقسم إلى قسمين : أحدهما — برى ، وهو نوع يلزم البروج وما شاكلها ، ومن عيوبه أنه كثير النفور ، ولذلك سمى بريا .

والنوع الثانى — الأهلى ، وهو الذى يألف البيوتات والمحلات المستوطنة ويُستفرخ فيها[٢] .

والنوع الأخير يتخذ لعدة ضروب ، فمنها ما يتخذ فى البيوتات ، ومنها ما يتخذ للسباق والتلهى أو فى حمل الرسائل[٣] ، كما إنه متعدد الأصناف ، والأشكال ، والألوان ، والأفعال ، (ومنها الرّواعب والعدّاد ، والميساق ، والشدّاد ، والقلاب ، والشقاق ، والمنسوب)[٤] .

على أنّ ما ننشده فى بحثنا هذا هو الحمام « المنسوب » ، أو ما يسميه العراقيون باسم « الهوادى » ، والمصريون « بحمام البطاقة[٥] » أو الزاجل ، (وهو بالنسبة إلى ما تقدم ذكره كالعتاق من الخيـــل ، وما عداه فيها كالبراذين)[٦] ، فهو أغلى الأنواع قيمة وأعلاها رتبة ؛ لأنه الذى (يتخذه الملوك لحمل المكاتبات ، ويُعبر عنه بالهدى)[٧] .

— أى الذى يهتدى طريقه بعد زجله أو تدريبه —[٨] .

أولا — الاعتناء بالحمام

والإهتمام بشأنه والأغراض التى استخدم فيها

اعتنى خلفاء بنى العباس كالخليفة « المهدى » و « الناصر » بالحمام اعتناء كبيراً . كما تنافس فى اقتنائه وشرائه رؤساء الناس فى العراق لاسيما فى مدينة البصرة ، إلى حد أنهم شروا الطائر الفاره بسبعمائة دينار ، كما قيل أنه (بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار... وكانت تباع بيضتا

الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمام كأنساب العرب[٩] ، وأنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ، ولا الفقيه ، ولا العدل من اتخاذ الحمام والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لأثرها ، والنعت لمشهورها)[١٠] .

ويقرر المؤرخون أن أول ما نُشىء الحمام بالديار المصرية والشامية كان من الموصل ، ثم حافظ عليه (الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديواناً وجرائد بأنساب الحمام ، وللقاضى الفاضل محيي الدين عبد الظاهر فى ذلك كتاب سماه « تمائم الحمائم »)[١١] .

ويُجمع المؤرخون على أن أول مَن اتخذ من الملوك الحمام الهوادى وعممه فى جميع أنحاء مملكته الشهيد « نور الدين محمود بن زنكى » ، وذلك فى سنة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م)[١٢] ، ويرجع سر ذلك إلى اتساع مملكة نور الدين ، فقد امتدت (من حد النوبة إلى باب همذان ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . وكان الفرنج - لعنهم الله - ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم يكونوا قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر البلاد ، وأجرى الجرايات لها ولمربيها)[١٣] .

وبذلك حُفظت ثغور المسلمين وبلادهم ، (فقد كانت الأخبار تأتيه لوقتها ، فإنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ومعهم من حمام المدينة التى يجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمراً كتبوه لوقتـــه وعلقوه على الطائر وسرحوه ، فيصل إلى المدينة التى هو منها فى ساعته ، فتُنقل الرقعة منه إلى طائر آخر من البلد الذى يجاورهم فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه)[١٤] .

أضف إلى ذلك أن نور الدين اهتم اهتماماً كبيراً بتشييد الأبراج على

الطرق ،وبين بلاد المسلمين والفرنج ، كما جعل فى تلك الأبراج من يصونها ويحفظها ، ومعهم الطيور ، فإذا رأى الحفظة تحركاً ما من قبل العدو أرسلوا الطيور بذلك إلى نور الدين(١٥) .

الأغراض التى استخدم فيها الحمام :

(ا) التلهى :

ماتلهى الناس بشىء منذ القدم مثلما تلهوا باللعب بالطيور المناسيب ، فهم وإن سابقوا بينها ، فقد اهتموا بتحميلها البطائق ، فاستخدام الحمام إذن (يخرج من أبواب الهزل إلى أبواب الجد)(١٦) .

« فالعزيز بالله » الفاطمى سابق بين طائر له وطائر لوزيره « يعقوب بن كلس » ،(فسبق طائر الوزير يعقوب طائر العزيز ، فشق ذلك على العزيز)(١٧) . والسلطان « الملك الكامل شعبان » كان يحب لعب الحمام (فلما تسلطن تغالى فى ذلك ، وقرب من يكون من أرباب هذا الشأن)(١٨) .

لذلك لم يكن غريباً أن يصدر أمره بأن ينادى بالقاهرة ألا يعارض أحد لعاب الحمام أو غيرهم من أرباب الملاعيب(١٩) .

كذلك شغف السلطان « المظفر حاجى » بلعب الحمام وغيره .

ويرجع «المقريزى» سر تعلقه بالحمام ،إلى أنه كان شغوفاً بثلاث نسوة ، حتى أنه إنقطع إليهن بالدهيشة، وهو أمر تقوله الأمراء، فخوفه الأمراء الخاصكية عاقبة ذلك، فأخرج النسوة جميعاً ، فأحب أن يتعوض عنهن بما يلهيه ويسليه ، واختار صنف الحمام وأنشأ حضيراً بأعلى الدهيشه، وركبه على صوار وأخشاب عالية ، وملأه بأنواع الحمام ، فبلغ مصروف الحضير خاصة سبعين ألف درهم)(٢٠) وفضلا عن ذلك استمر اجتماع السلطان بالدهيشة بسائر أرباب الملاعيب ، فشق ذلك على الأمراء ، فحدثه الأمير « الجيبغاوطنبرق » ــ وكانا عمدتى السلطان ــ فيما يتقوله الأمراء ،وخوفوه سوء العاقبة ، مما أثار غضب

السلطان ، حتى أنه قام إلى السطح وذبح جميع الحمام بحضرتهما ، كما أغلق باب الدهيشة . إلا أن السلطان لم يكن ليطيق الإستغناء عن التلهى ، لذلك نراه ينتهز فرصة خروج الأمراء إلى الصعيد للصيد بجوارحه ، ورسم لهم ألا يعودوا إلى العشر الأخير من شهر رمضان . فخلا الجو بذلك للسلطان (وأعاد حضير الحمام ،وأحضر إليه عدة من عبيده، وأعاد أرباب الملاعيب... ... فصار للسلطان إجتماع بالأوباش وأراذل الطوائف.... ومطيرى الحمام، فكان يقف معهم ويراهن على الطير الفلانى والطيرة الفلانية . وبينما هوذات يوم معهم عند حضير الحمام وقد سيبها إذأذن العصر بالقلعة والقرافة ،فخفقت الحمام على مقاصيرها وتطايرت ، فجرد السلطان وبعث إلى المؤذنين يأمرهم أنهم إذا رأوا الحمام لايرفعون أصواتهم)[٢١] !! .

كما إنتهز فرصة قدوم « ابن الحرانى،من دمشق بمال الأمير «يلبغا اليحياوى» وأنعم من ضمن من أنعم عليهم على (لعاب الحمام ، والفراشين ، والعبيد الذهب واللؤلؤ ، وصار يحذفه لهم وهم يتزاحمون عليه ويأخذونه)[٢٢] . ولكن الأميرين « الجيبغا وطنيرق » مازالا ينكران على السلطان أفعاله وتصرفاته ، وتخويفه بسوء العاقبة ، حتى ضاق صدره ، فأمر شاد العمائر بتخريب حضير الحمام ، ثم قام وذبح بيده الحمام واحداً بعد واحد ، كما توعد الأميرين بالذبح ، وإن كان الأمر قد إنتهى بذبحه هو[٢٣] .

خلف السلطان « المظفر حاجى » فى الحكم السلطان « الملك الناصر بدر الدين أبو المعالى الحسن بن محمد بن قلاوون » . وقد عاين مصير سلفه وعلم سببه ، لذلك لم يكن غريباً أن يصدر أمره إلى شاد الدواوين بأن يستخلص من خدام « المظفر حاجى» ومن كان يعاشره من الفراشين ومطيرى الحمام ماأخذوه من مال ، فأقر الخدام أن الذى خص (العبيد والفراشين ومطيرى الحمام نحو مائة ألف درهم)[٢٤].

كذلك شغف الخلفاء بلعب الحمام ، شأنهم فى ذلك شأن السلاطين ، فالخليفة « الناصر لدين الله » (٥٧٥هـ/١١٧٩م ، وإن كان سنة (٥٩١هـ/١١٩٤م) قد اعتنى (بحمام البطائق إعتناء زائداً ، حتى صار يكتب بأنساب الطير الحاضر « أنه ولد الطير الفلانى » ، وقيل أبه باع طيراً بألف دينار)[٢٥]، فإنه قد شغف أيضاً بلعب الحمام شغفاً عظيماً ، حتى حكى عنه - إن صحت الرواية - أنه لما دخلت التتار وتملكت البلاد من ماوراء النهر إلى العراق وقتلوا الناس وهدموا الدور ؛ دخل عليه الوزير ، فقال له يامولانا إن التتار قد ملكت ... وقتلت المسلمين ، فقال الناصر لدين الله : دعنى أنا فى شىء أهم من ذلك ، طيرتى البلقاء لى ثلاثة أيام ما رأيتها[٢٦] !! .

كذلك شغف بلعب الحمام كل من الخليفة « المعتصم بالله » (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) — آخر خلفاء بنى العباس ببغداد — والخليفة « المتوكل على الله محمد »[٢٧] (٧٦٣ هـ/ ١٣٦١ م) .

والناس على دين ملوكهم[٢٨] .

(ب) الحمام وأثره فى القضاء على الفتن والثورات :

لقد ساعد الحمام حكام المسلمين فى القضاء على كثير من الفتن والثورات وهى فى مهدها . ففى سنة (٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م) — على سبيل المثال — وقعت فتنة كبرى بين المسلمين وتجار الفرنج[٢٩] ، وعندئذ بادر « الكركى » متولى ثغر الأسكندرية بمطالعة السلطان بما حدث على جناح الطائر ، وبذلك أمكن للسلطان تدارك أمر تلك الفتنة وقضى عليها [٣٠] .

كذلك روى « ابن بطوطة » أنه حدث بمدينة جبلة - بالشام — أن ادعى شخص الهداية ، وتجمع الناس حوله ، فوعدهم بتملك البلاد ، كما قسم بلاد الشام بينهم ، ثم طلب منهم مقاتلة المسلمين ، على أن يبدءوا بجبلة ، فغدروا

بأهلها والمسلمون فى صلاة الجمعة ، واتصل خبر ذلك إلى أمير اللاذقية « بهادر بن عبد الله » ، فأقبل بعساكره (وطيرت الحمام إلى طرابلس ، فأتى أمير الأمراء بعساكره واتبعوهم ... وكان الخبر قد طير به إلى الملك الناصر ، وصدر جوابه أن يحمل عليهم بالسيف)[٣١] .

كذلك لعب الحمام دوراً هاماً فى القضاء على المؤامرات الشخصية التى وقعت بين الأمراء ، أو بينهم وبين السلطان ، وفى التعبير عن رأى الأمراء فى السلطان وتصرفاته .

من ذلك أن « الملك العادل أبو بكر بن الملك الكامل » بطق سنة (٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م) إلى من بقى على ولائه له بضرورة محاربة الخامرين عليه ببلبيس ، فاقتتل الأكراد مع الأتراك ببلبيس وانتصروا عليهم[٣٢] . ومن ذلك أيضاً ما حدث من صراع داخلى مرير بين الأمراء الأيوبيين ، فقد أهات سنة (٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م) والصراع محتدم بين الملك الصالح نجم الدين أيوب ، « والملك الصالح اسماعيل . وكان « الصالح أيوب » قد بعث برسوله الطبيب « سعد الدين » الدمشقى من مدينـــة نابلس (ومعه طيور البطائق يعرفه أحوال « الصالح اسماعيل » وقتاً بوقت ، فكان « سعد الدين » يكتب البطائق بما يراه من تغير الأحوال ويربطها على أجنحة الحمام ويعطيهم للبراج ، فيمضى بهم « السامرى » الذى عاد وزير « الصالح اسماعيل » ، وكان له بدمشق عيناً ، فيأخذ « السامرى » تلك البطائق ويكتب للملك « الصالح أيوب » بعكس ما كتبه « سعد الدين » ، فيطيب خاطره بذلك)[٣٣] .

وفى نفس الوقت أخذ « الصالح » فى مكاتبة عمه « الملك الصالح عماد الدين اسماعيل » فى الوصول إليه بنابلس ، وبعث إليه الطبيب « سعد الدين » ومعه الحمام ليسرحها إليه بما يتجدد (فاتفق أمر عجيب ، وهو أنه لما وصل « سعد الدين » إلى قلعة بعلبك أنزله « الصالح عماد الدين اسماعيل » بدار ، وبدّل

عوض الحمام الذى فى قفص « سعد الدين » بحمام آخر من حمام القلعة ببعلبك)[٣٤] .

شرع « الصالح عماد الدين » بعد ذلك فى التدبير لإنتزاع دمشق من يد أخيه « الملك الصالح نجم الدين أيوب » فنجده يرسل جواسيسه إلى ابن أخيه « الملك العادل » يعرفه بما عزم عليه ، وأنه فى طاعته ، وأنه فى حالة تملكه دمشق سوف يخطب له على منابرها ويضرب السكة باسمه ، كما كتب إلى « الملك المجاهد » صاحب حمص يلتمس معاونته .

يحدث كل ذلك وكتبه متواصلة إلى « الملك الصالح نجم الدين أيوب » يعده فيها بتقديم النجدة له (فقطن بذلك « الطبيب سعد الدين » ، وكتب البطائق على أجنحة الحمام بهذا الأمر إلى « الملك الصالح نجم الدين » ، فكان كلما سرّح « سعد الدين » منها طائراً وقع فى برجه بقلعة بعلبك ، فأتى به البراج إلى الملك الصالح عماد الدين ، ثم إن الصالح عماد الدين زوّر بطاقة على الطبيب سعد الدين فيها « إن المولى الملك الصالح عماد الدين فى الإهتمام للمسير إلى المعسكر المنصور ، وإنه باقٍ على الطاعة » وسرّح هذه البطاقة المزورة على جناح طائرة من الطيور التى وصلت مع الطبيب سعد الدين)[٣٥] ، فلما وقعت هذه البطاقة ظن أنها من عند رسوله ، فطاب قلبه واطمأن .

وَالىَ « الصالح عماد الدين » إرسال البطائق المزورة ، فى الوقت الذى كان « سعد الدين » يسرّح فيه البطائق فتقع فى قلعة بعلبك ، فتصل إلى « الصالح عماد الدين »[٣٦] .

وبذلك تمكن « الصالح عماد الدين » من أخذ دمشق ، على حين عاد « الملك الصالح » خائباً[٣٧] .

أما فى عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام فقد إزداد الإعتماد على

الحمام الزاجل حتى صار له أثر كبير فى تجميع قوى السلطان للقضاء على القلاقل التى حدثت من جانب المناوئين له أو الخامرين علية من الأمراء .

فى أثناء الصراع الذى دار بين الأمير الكبير « يلبغا » وبين غيره من الأمراء والسلطان شعبان ، نادى من بقى على ولائه للسلطان ، وبعد أن فر الأمير « يلبغا » بأن من أراد من الأمراء الأمير « يلبغا » فليتبعه ، ومن أراد السلطان فليقم مع من بقى من الأمراء فى محاربة « يلبغا » . (وكتب البطائق إلى الأسكندرية ، ودمياط ، ورشيد ، والبرلس على أجنحة الحمام بقدوم من بها من الأمراء والأجناد . . وكتب بحضور من بالوجه القبلى والوجه البحرى أيضا)[٣٨] ، وعلى ذلك تمكن السلطان من مجابهة الخصوم[٣٩] .

كذلك حدثت بدمشق سنة (٧٩٢هـ / ١٣٨٩ م) غوغاء عظيمة وصلت أخبارها إلى مصر ، وذلك أن طوائف من المماليك وعوام دمشق تجمعوا بقصد تملكها ، فسرّح الأمير الكبير « أيتمش » الطائر من قلعة دمشق إلى سلمية يعلم الأمير « يلبغا الناصرى » بذلك ، فركب « الناصرى » من فوره والوقت منتصف الليل وتقاتل مع المذكورين[٤٠] .

ومثال ذلك حدث سنة (٨٠٧هـ / ١٤٠٤ م) عندما ركب الأمير « يشبك الشعبانى » والأمراء لمحاربة السلطان ، وواصلوا مسيرهم من دمشق حتى قاربوا بلبيس ، وهنا وقعت البطاقة من بلبيس تفيد بأن العساكر الشامية الخامرين قد وصلوا إلى قطيا فحين علم السلطان ذلك خرج إليهم بعساكره واقتتل معهم[٤١] .

ومن ناحية أخرى لعب الحمام دوراً هاما فى الإفصاح عن رأى المماليك فى السلطان وأفعاله . فهم وإن لم يستطيعوا مواجهته برأيهم ، إلا أنهم لجأوا إلى توصيل رأيهم إليه على أجنحة الحمام .

من ذلك ما حدث سنة (٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م) عندما كثرت الأوراق المرسلة فى السلطان وأمرائه وأهل دولته (وإلقائها من غير أن يعلم من أين هى ، أو ربطها بجناح طائر حمام ، وحذفه خارج حائط الميدان تحت القلعة إلى داخله)(٤٢) .

ومثال ما حدث سنة (٧٢١ هـ / ١٣٢١ م) إذ (ألقيت ورقة فى جناح طائر وجدت بالإسطبل تتضمن الإنكار على السلطان ، وأنه فرّط فى مملكه ومماليكه ، والعسكر قد تلف ، وقد باع أولاد الناس الإقطاعات التى بأسمائهم ، وصاروا يسألون الناس الحاجة)(٤٣) .

وتكرر نفس الشىء سنة (٧٢٦ هـ/١٣٢٥ م) ، إذ سقط طائر حمام بالميدان وعلى جناحه ورقة تضمنت الوقيعة بالأمير النشو وذويه ، والقدح فى السلطان بأنه خرّب دولته(٤٤) .

(ح) الحمام وأهميته فى وقائع المسلمين :

استفاد المسلمـــون من خدمات الحمام الزاجل فى وقائعهم وخاصة ضد الصليبيين والتتار .

مثال ذلك أنه حدث أثناء نوبة عكا سنة (٥٨٦ هـ/١١٩٠ م) أن انقطع خبر البلد ، وامتنع دخول الإمداد إليها بسبب محاصرة الفرنج لشاطئها ، فانتدب العوّام للسباحة إليها ، بعد أن حملوا على أوساطهم نفقات الأجناد.

ويصف لنا «الأصفهانى» فى أسلوب شيق مخاطرة هؤلاء العوام والمكافأة التى صارت للحمام فى نفوس الأجناد بعد تلك النوبة بقوله :

(ويخاطرون بأنفسهم مع احتياطهم ، ويحملون كتباً وطيوراً ، ويعودون بكتب وطيور ، ونكتب إليهم ويكتبون إلينا على أجنحة الحمام

بالترجمة المصطلح عليها سر الأمور . . . وكان فى العسكر من إتخذ حماما تطوف على خيمته وتنزل فى منزلته ، وعمل لها برجا من خشب وهرادى — قطع ممزقة — من قصب ، ويدرجها على الطيران من البعد ، ويوردها لشبعها وريها أحب الحب وأعذب الورد . وكنا نقول : «ما هذا الولع بما لا ينفع والوله بما لا ينجع» ، حتى جاءت نوبة عكاء فنفعت . . . فصرنا نحبوا صاحب الطيور بالإطراء ونخصه بالمدح والثناء ونأمره بالإستكثار . . . وكنا نعرف بها جلية الأحوال . . . فإنها أمينة على الأسرار)(٤٥) .

كذلك ساهم الحمام الزاجل فى اطلاع حكام المسلمين على كل ما يتجدد بالثغور وغيرها ، فقد جرت العادة (أن يطالع نواب المملكة السلطان بما يتجدد عندهم على أيدى البريدية ؛ وتارة على أجنحة الحمام ، فتعود إليهم الأجوبة السلطانية وعليها العلامة)(٤٦) .

وعلى ذلك فحينما نازلت طائفة من الفرنج ثغراً « لنورالدين » أتاه الخبر فى يومه (فكتب إلى العساكر المجاورة لذلك الثغر بالإجتماع والمسير بسرعة وكبس العدو ، ففعلوا ذلك فظفروا ، والفرنج أمنوا لبعد نور الدين (٤٧) .

وحينما نازل الفرنج برج دمياط سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) ، خرج « الملك الكامل » بعساكره فى ثالث يوم من سقوط البطاقة بخبر نزول الفرنج(٤٨) .

وإبان كبسة الفرنج لمدينة المنصورة سنة (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) سرح الطائر بذلك إلى القاهرة(٤٩) .

كذلك لعب الحمام نفس الدور فى مجابهة المسلمين لحملة التتار .

فنى سنة (٦٨٠هـ / ١٢٨١م) حدث أن قفز شخص من التتر إلى حماة وطلب من نائبها أن يكتب (الساعة إلى السلطان على جناح الحمام ، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب ... وهم طالبون القلب ، والميمنة التى لهم قوية جداً ، فيقوى ميسرة المسلمين ، ويحترز على السناجق ، فقر السلطان الكتاب ، وركب عند إسفار الصباح لتقوية الميسرة)(٥٠) .

ومن جهة أخرى فقد جرت العادة فى نقل الأخبار السعيدة ، كانتصار المسلمين على اعدائهم أو غير ذلك من المناسبات السعيدة ، أن تخلق — تمسح — الطيور وبطائقها بالعطور الطيبة . أما فى حالة الأخبار السيئة ، — كالهزيمة مثلا — فكانت تلطخ وبطائقها بالسواد(٥١) .

يضاف إلى كل ما سبق ذكره أن الحمام الزاجل استخدم فى أغراض ومناسبات أخرى ، مثل الإعلام بموعد قدوم السلطان — من الشام مثلا — إلى عاصمة ملكه ، بقصد الإستعداد لاستقباله ، كما استخدم فى إخطار السلطان بكل من يصل أو يتطرق على حـــدود المملكة المصرية (إمامن واصل أوهارب)(٥٢) ، بقصد الحصول على إذن باستقباله أو رده .

إذ لما نزل « تورانشاة » بقلعة دمشق وحلف له الأمراء وتسلطن بطق الطائر بذلك إلى المعسكر والقاهرة ، فضربت البشائر بالمعسكر وبالقاهرة(٥٣) .

وبعد أن نزل السلطان « فرج » قطيا — بعد مجيئه من الشام — (سرح الطائر إلى قلعة الجبل بأنه يقدم يوم الأربعاء ثانى عشرة ، فتأهب الناس إلى لقائه وخرجوا إليه)(٥٤) .

وفى سنة (٨١٥ هـ/١٤١٢م) وقعت بطاقة تتضمن قدوم الأمير « كزل » ، الذى أتى ليخبر السلطان « فرج » بأن العساكر المصرية والشامية قد اتفقوا على كلمة واحدة ، وأنهم خلعوه(٥٥) .

وفى سنة (٨٢٠هـ/١٤١٧م) قدم الأمير « أقباى المؤيدى » نائب حلب بغير مرسوم من السلطان (وكان عند وصوله إلى قطيا أرسلوا البطاقة بحضوره فأمر بتلقيه ، فتلقوه بسرياقوس)(٥٦) .

وفى أثناء حرب المسلمين للتتار سنة (٦٨٠هـ/١٢٨١م) ورد الخبر إلى مصر من قاقون على جناح الطائر ، بأن جماعة من ميسرة العساكر السلطانية وصلوا منهزمين من العدو (ووصل بعض الأمراء إلى قطيا .. فاشتد القلق عند ورود هذا الخبر ، وجرد الملك الصالح فى الحال عسكراً ... فى كثير من العربان إلى قطيا لرد المنهزمين وإعادتهم)(٥٧) .

ثانيا ــ اختيار حمام البطائق وتعليمه وكيفية إرساله بالبطاقة

(١) ما يختار للزجل من الحمام :

تفرس العلماء والأقدمون وذوو الفراسات فى اختيار الحمام المراد زجله، شأنهم فى ذلك شأن تفرسهم فى الخيل والناس والجواهر ؛ وذلك لأن الطير ــ كغيرها ــ تختلف فى طباعها اختلافاً شديداً ، (فمنها القوى ، ومنها الضعيف ، ومنها البطيء ، ومنها السريع ، ومنها الذهول ، ومنها الذكور ، ومنها القليل الصبر على العطش ومنها الصبور ، وذلك لا يخفى فيهن عند التعليم والتوطين فى سرعة الإجابة والإبطاء)(٥٨) .

وكان أن اتفقوا على أن جميع الفراسة التى لا تخطىء فى حمام الأمصار لا تخرج عن أربعة وجوه :

الوجه الأول : التقطيع ، والثانى : المجسّة(٥٩).

والثالث : الشمائل ، والرابع : الحركة .

(فأما التقطيع، فانتصاب العنق والخلقة ، واستدارة الرأس من غير عظم ولا صغر ، وعظم القرطمتين(٦٠) ونقاؤهما ، واتساع المنخرين ، وانهرات الشدقين ، وسعة الجوف ، ثم حسن خلقة العينين مع توقدهما ، وقصر المنقار في غير دقة ثم اتساع الصدر، وامتلاء الجؤجؤ(٦١) ،وطول العنق ، واشراف المنكبين ، وانكماش الجناحين ،وطول القوادم في غير إفراط ، ولحوق بعض الخوافي ببعض ، وصلابة القصب في غير انتفاخ ولا يبس ، واجتماع الخلق في غير الجعودة والكزازة(٦٢) ، وعظم الفخذين ، وقصر الساقين والوظيفين ، وافتراق الأصابع ، وقصر الذنب ، وخفته من غير تفنين(٦٣) وتفريق ، ثم توقد الحدقتين ، وصفاء اللون . فهذه علامة الفراسة في التقطيع .

وأما علامة المجسة ، فوثاقة الخلق ، وشدة اللحم ، ومتانة العصب، وصلابة القصب ، ولين الريش في غير رقة ، وصلابة المنقار في غير دقة .

وأما علامة الشمائل ، فقلة الإختيال ، وصفاء البصر ، وثبات النظر ، وشدة الحذر ، وحسن التلفت ، وقلة الرعدة عند الفزع ، وخفة النهوض إذا طار ، وترك المبادرة إذا لقط .

وأما علامـــة الحركة ، فالطيران في علو ، ومد العنق في سمو ، وقلة الإضطراب في جو السماء ، وضم الجناحين في الهواء ، وتتابع الركض في غير اختلاط ، وحسن القصد في غير دوران ، وشدة المد في الطيران . فإذا أصبته جامعاً لهذه الصفات فهو الطائر الكامل)(٦٤) ، (وإلا فبقدر ما فيه من هذه المحاسن تكون هدايته وفراهته)(٦٥) .

كذلك تفرسوا في ألوان الحمام وشيانه ، بل وفي تعداد الرياش المعتبرة فيها ، وهي رياش أجنحتها وأذنابها(٦٦) ، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى .... والزمان والمكان اللائقين بالإفراخ)(٦٧) .

ففيما يختص باللون والشيات أجمع العلماء على أن أحسن الحمام الهداء ما كان لونه أبيض أو أخضر أو كان منمراً(٦٨) .

وإذا كان العراقيون هم أول من أعتنوا بالحمام وتنافسوا فى اقتنائه وذلك منذ عهد خلفاء بنى العباس(٦٩) ، فإنهم قد اختلفوا فى الجنس المراد زجله .

فالبغداديون يفضلون الإناث على الذكور . وحجتهم فى ذلك (أن الذكر إذا سافر وبَعُدَ عهده بقمط الإناث ، وتاقت نفسه إلى السفاد ، ورأى أنثاه فى طريقه ، ترك الطلب إن كان بَعُدَ فى الجولان ، أو ترك السير إن كان وقع على القصد ومال إلى الأنثى ، وفى ذلك الفساد كله)(٧٠).

أما البصريون فيزعمون أن الذكر (أحن إلى بيته لمكان أنثاه ، وهو أشد متناً وأقوى بدناً ، وهو أحسن إهتداء ، فنحن لا ندع تقديم الشيء القائم إلى معنى قد يعرض وقد لا يعرض)(٧١) .

(ب) طريقة زجل الحمام :

تصح الإشارة أولا إلى أن القاعدة العامة فى الزجل ألا يزجل الزجال من الحمام (ما كان منشؤه فى بلاد الحر فى بلادالبرد ، ولا ما كان منشؤه فى بلاد البرد فى بلاد الحر ، إلا ما كان بعد الإعتياد ، ولا يصبر على طول الطيران فى غير هوائه وأجوائه طائر إلا بطول الإقامة فى ذلك المكان)(٧٢).

يبدأ زجل الحمام بعد فطامه عن أبويه مباشرة(٧٣) ، فيشرع الزجال أولا فى إطعام الأفراخ من يده ، وفى سقيها من فمه ، حتى إذا علم أنها قد شبعت وارتوت أخذ فى مداعبتها والسير أمامها لتتبعه ، يفعل ذلك فى نهاره مرتين أو أكثر ، وذلك كله بقصد تعويدها الألفة والإئتناس .

فإذا لاحظ أن الأفراخ قد اشتدت وقويت على الطيران قليلا ، وضع مع كل فرخ الجنس المخالف له ، وذلك ليألف كل صاحبه(٧٤) .

فإذا أراد أن يمرن الأفراخ على الطيران أخرجها وهى جائعة مع قبيلة من الحمام الفاره ، حتى إذا ألقى إليها الحب أسرعت فى النزول للقطها(٧٥) .

وينصح « الجاحظ » الزجال فى هذا الشأن بقوله : (ولا تخرج والريح عاصف ، فتخرج قبل المغرب وانتصاف النهار ، وحذاقهم لا يخرجونها مع ذكورة الحمام ، فإن الذكورة يعتريها النشاط والطيران والتباعد ومجاوزة القبيلة ، فإن طارت الفراخ معها سقطت على دور الناس ، فرياضتها شديدة ، وتحتاج إلى معرفة وعناية ، وإلى صبر ومطاولة)(٧٦) .

فإذا كملت تلك المرحلة خرج الزجال بالحمام إلى ظهر سطح عال ونصب عليه علماً ذا لون واضح ، ثم أخذ فى تطيير الحمام ، شريطة ألا يجاوز الحمام ذلك المحل ، وأن يكون علف الحمام بالغداة والعشى ، ثم يلقى لها ذلك العلف بعد تطييرها (قريباً من علمه المنصوب له حتى يألف المكان ويتعود الرجوع إليه)(٧٧).

ولا ينبغى للزجال أن يطير الذكر وأنثاه ، بل يجعل (أحدهما محتبساً إذا أرسل صاحبه ، ليتذكره فيرجع إليه ، فإن خيف عليه أن يكون قد مل زوجته عرضت عليه زوجة أخرى قبل الزجل)(٧٨) .

وله أن يقص أو ينتف(٧٩) الأنثى ويطير الذكر ، فإنه يتوق إلى زوجته ويتنزع إليها مسرعاً .

فإذا إهتدى الذكر إلى المكان ، ونبت ريش الأنثى صنع بها كذلك(٨٠) فإن إهتدت بدورها إلى المكان ، طيرا جميعاً ومنعا من الإستقرار ، إلا أن يظن بهما الإعياء والكلل .

فإذا اكملت تلك المرحلة وطن لهما الزجال سائر المزاجل فى البر والبحر بحيث إذا إرتفعا فى الجو من أى مكان عاينا السطح والعلم ، فإن رجعا من المكان الذى طيرهما منه مرات ومرات ، زجلا إلى مكان أبعد منه(٨١) ، وهكذا حتى يبلغ بهما الغاية .

أما إذا ذعر الحمام فى أثناء طيرانه من طلب جارح له ، فالواجب على الزجال أن يضمه ويستفرخه ، وذلك لأن الذعر يظل به (لا يفارقه ولا يسكن حتى تستأنف به التوطين)(٨٢) .

كذلك يجب على كل زجال أن يعلم الحمام ورود العيون والغدران والأنهار ، فقد يحتاج الحمام إلى الشرب أثناء رحلته ، فإذا لم يكن قد تعود نظر المسطحات المائية والشرب منها إضطرب وغرق .

يبدأ ذلك الأسلوب بأن يكف الزجال بصر الحمامة بأصابعه ، (وليكن معطشاً ، فإنه أجدر أن يشرب . تفعل ذلك مراراً ثم تفسح له المنظر أولا أولا حتى ينكر ماهو فيه ، فلا تزال به حتى يعتاد الشرب بغير سترة) (٨٣) .

فإذا حذق الزوجان كل ماسبق ، وضعا فى قفص يسمح لهما بمشاهدة طريق الرحلة ، وأرسلا إلى المحل المراد مراسلته(٨٤) . فالقاعدة إذن هى تبادل الحمام بين المدن ، فقد كان — وعلى سبيل المثال — (بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق)(٨٥) .

فإذا وصلا ، حبسهما البراج أكثر من شهر ، وأخذ فى إطعامهما من يده يومياً مع مداعبتهما ، وذلك حتى يعتادا المكان ويألفا البراج ، فإنه إذا تعجل فى تسريحهما ربما رجعا إلى مكانهما الأول ، ولم يعودا (٨٦).

(ج) تسريح الحمام :

القاعدة العامة فى التسريح هو ماسبقت الإشارة إليها من ضرورة حبس

الأنثى وإرسال الذكر أو العكس، وأن لا ترسل الحمائم إلا بعد إطعامهما الطعام الكافى .

وكانت العادة المتبعة فى كل مملكة من الممالك الإسلامية أن يتوخى الإبعاد فى التسريح عند مستقر الحمام ؛ (والقصد بذلك أنها لا ترجع إلى أبراجها من قريب)(٨٧) .

والواجب أنه إذا أطلق الطائر من مصر فلا يطلق إلا من أمكنة معلومة، فإذا سرح من قلعة الجبل إلى الإسكندرية فلا يسرح إلا من أول المراكن وهى منية عقبة بالجيزة ، وإذا سرح إلى جهة الشرقية فلا يسرح إلا من مسجد تبر(٨٨) خارج القاهرة . أما إذا سرح إلى دمياط فلا يسرح إلا من ناحية بيسوس بشط بحر منجى(٨٩) ،(وكان يسير مع البراجين من يوصلهم إلى هذه الأماكن من الجاندارية)(٩٠) لحمايتهم وحفظ مكنون الحمام .

فإذا كانت الحمامة غير فارهة وجب على البراج أن يتبعها بالملاحظة قليلا مقدار ربع ساعة حتى لا تتوقف فى إحدى الأشجار عن التسريح ،فإن توقفت وجب عليه أن يحثها على الطيران(٩١)

ولضمان تعويد الحمام غير الفاره على الرواح والرجوع — دون ما عناء كان بعض البراجين يقومون بحبس الأنثى ، وإرسال الذكر مع أنثى المكان المراد مراسلته ، وحين بلوغهما ذلك المكان ، تحبس الأنثى ويسرح الذكر بالجواب إلى المكان الذى أتى منه(٩٢) .

ولزيادة الإطمئنان فى توصيل البطاقات إلى المراسلين ، كانت القاعدة الغالبة أن تسرح إحدى الطيور أولا ، ثم بعد ساعتين من إطلاق الأولى تسرح الثانية ، ولذلك كان (ولا بد وأن يكتب : « سرح الطائر ورفيقه » ، حتى إذا تأخر الواحد ترقب حضورة أو تطلب)(٩٣) ، أو أن يطلق الثانى لئلا يكون الأول قد وقع فى أحد أبراج المدينة(٩٤).

كما اقتضت العادة أن يعمل فى الطيور السلطانية علائم ليسهل تمييزها عن غيرها ، (وهى داغات فى أرجلها ، أو على مناقيرها ، ويسميها أرباب الملعوب: « الإصطلاخ »)(٩٥) .

وكان إذا سقط الطائر بالبطاقة لا يجرؤ أحد أن يقطع البطاقة منـــه إلا السلطان ، بيده من غير واسطة ، فقد كان لهم (عناية شديدة بالطائر ، حتى أن السلطان إذا كان يأكل وسقط الطائر لا يمهل حتى يفرغ من الأكل ، بل يحمل البطاقة ويترك الأكل ، وهكذا إذا كان نائماً لا يمهل بل ينبه)(٩٦) .

وكذلك إن كان فى الموكب ، أو يلعب بالأكرة ، وذلك كله (لأنه بلمحة يفوت ولا يستدرك المهم العظيم ، إما من واصل ، أو هارب ، وإما من متجدد فى الثغور)(٩٧) .

(د) نسخ البطائق وطريقة تعليقها بالطائر

(١) نسخ البطـــائق :

تكتب بطائق الحمام – فضلا عن الملطفات ، وما فى معناها – بقلم يعرف « بالغبار » ، وهو قلم ضئيل ، (سمى بذلك لدقته . . . وبعضهم يسميه « قلم الجناح » (٩٨). هذا وقد استخدم فى نسخ البطائق ورق صغير خفيف عرف باسم « البطائق » (٩٩) .

والجدير بالذكر أن نسخ البطائق كان على ضربين :

الضرب الأول : أن تكون البطاقة «بعلامة شريفة» (١٠٠).

وتكون نحو ثلثى وصل من ورق البطائق(١٠١) .

ويذكر كل من « السيوطى والمقريزى » نقلا عن كتاب « تمائم الحمائم» لابن عبد الظاهر ، أن « ابن عبد الظاهر »(١٠٢) رأى الأوائل لا يكتبون فى أولها بسملة(١٠٣) ، إنما تكون صورتها على حسب ماذكره «القلقشندى» ، (أن يكتب فى رأس الورق المذكور فى الوسط سواء : « الإسم الشريف» ،

وتحته ملصقاً به من غير بياض سطر واحد كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتى ذكره .

ثم يخلى بيت العلامة تقدير أربعة أصابع مطبوقة ، ثم تكتب تتمة الكلام أسطراً متلاصقة بنسبة الأول ، بغير هامش أصلا إلى آخره ، والذى يكتب من يمين الورق : « الله الهادى ، سرح الطائر الميمون ورفيقه ، هداهما الله تعالى فى الساعة الفلانية ، من اليوم الفلانى ، من الشهر الفلانى ، من سنة كذا وكذا(١٠٤) ، إلى المجلس الكريم ، أو السامى ، الأمير فلان والى فلانة ، أو نحو ذلك ، يعلمه أن الأمر كذا وكذا ، ومرسومنا إليه أن يتقدم بكذا وكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ، حسبنا الله ونعم الوكيل . والمستند لها : « حسب المرسوم الشريف »)(١٠٥) .

كذلك أورد كل من «المقريزى والسيوطى» ملاحظات « ابن عبد الظاهر على مواد البطائق والتى شارك فى كتابة بعضها ، أنه (لا يكثر فى نعوت المخاطب فيها ، ولا يذكر حشو فى الألفاظ ، ولا يكتب إلا لب الكلام وزبدته ... ، ولا يعمل للبطائق هامش ولا تجعل)(١٠٦) ،(وجرت العادة بأن يكتب فى آخرها : « وحسبنا الله ونعم الوكيل » ، وذلك حفظ لها)(١٠٧) .

الضرب الثانى : أن تكون بغير علامة .

(وصورتها أن يكتب فى رأس الورقة ، فى الوسط موضع الإسم : «الله الهادى بكرمه » ، والأسطر متلاصقة بغير هامش ، ولا يخلى فيها بيت علامة. وصورة ما يكتب فيها : «المرسوم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى . الفلانى ، أعلاه الله تعالى وصرفه ، أن يسرح هذا الطائر الميمون ورفيقه ، هداهما الله تعالى فى وقت كذا وكذا ؛ ويكمل على حسب

ما تقدم . « والله الموفق حسب المرسوم الشريف ، إن شـــاء الله تعالى »)(١٠٨) .

أما إذا تطلب الحال نقل البطاقة من مكان بعيد عن السلطان ، فيجب أن تعنون البطاقة ، (فيكتب لها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد . وكل وال تصل إليه يكتب فى ظهرها أنها وصلت إليه و نقلها ، حتى تصل مختومة)(١٠٩).

أما إذا كانت مرسلة إلى غير ذات السلطان ، مثل أن تنقل من يلبيس إلى قطيا (فيكتب بعد ذكر المرسوم به : « ويتقدم بنقل البطاقة إلى فلان الفلانى ، ليعتمد مضمونها ويعمل بحسبها » ، فإن كانت منقولة إلى مكان ثالث كتب بعد ذلك : « ثم ينقلها إلى فلان ، ليعتمد مضمونها أيضاً ويعمل بمقتضاها ، فيعلم ذلك ويعتمده » ، والتتمة حسب ما تقدم)(١١٠) .

هذا فى أوقات السلم ، أما فى أوقات الحروب فكانت البطائق تحمل على (أجنحة الحمام بالترجمة المصطلح عليها بين الأمور)(١١١) .

(ب) تعليق البطاقة بالطائر :

جرت العادة أولا ألا تحمل البطاقة إلا تحت جناح الطائر ، مغروزة ومثبتة به بخيط رفيع (لأمور منها : حفظ البطاقة من المطر ، وقوة الجناح)(١١٢) .

ولكنهم عدلوا عن ذلك ووضعوها فى ذنب الطائر(١١٣)، ويرجع ذلك إلى أنها إذا وضعت تحت ذنب الطائر (صارت خوافى وراء الخوافى ، وغطت سرّها المودع بكتمان سبحت عليه ذيول ريشها الضوافى)(١١٤) .

ثالثا ـ مراكز الحمام

كان للحمام مراكز (أبراج) شأنه فى ذلك شأن محطات البريد ، وكانت المسافة بين المركز والآخر تعادل (ثلاثة مراكز من مراكز البريد ، فلا يتعدى الحمام ذلك المركز ، وينقل عند نزوله المركز ما على جناحه إلى طائر آخر ، حتى يسقط بقلعة الجبل ، فيحضره البراج ، ويقرأ كاتب السر البطاقة)(١١٥) على السلطان .

ويذكر «المقريزى» أنه كان بقلعة الجبل عدة أبراج برسم الحمام الزاجل، وأنه بلغت عدتها — على حسب ما ذكر فى كتاب «تمائم الحمائم» إلى آخر سنة سبع وثمانين وستمائة — ألف وتسعمائة طائر ، وأنه بها عدة من المقدمين لكل واحد منهم جزء معلوم ، وأن الطيور المذكورة ما كانت تبرح أبراج القلعة إلا للتسريح ، عدا طائفة منها ، فإنها كانت فى برج بالبرقية ، يعرف ببرج الفيوم ، وهو برج رتبه الأمير «فخر الدين عثمان بن قزل» ، أستادار «الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب» الذى شمل إقطاعه جميع أراضى الفيوم)(١١٦) .

كما كان فى كل مركز من المراكز التى بين مصر والشام — ما بين أسوان إلى الفرات — والثغور حمائم لاتحصى ، (وجميعها تدرج وتنقل من القلعة إلى سائر الجهات. وكان لها بغال الحمل من الإصطبلات السلطانية، وجامكيات البراجين والعلوفات تصرف من الأهراء السلطانية ، فتبلغ النفقة عليها من الأموال ما لا يحصى كثرة . وكانت ضريبة العلف لكل مائة طائر ربع وربة فول كل يوم)(١١٧) .

خطوط المسارح :

أولا : الأبراج الآخذة من قلعـــة الجبل إلى سائر الجهات فى عصر سلاطين المماليك :

(أ) الخط بين قلعة الجبل والوجه القبلى .

ويقرر المؤرخون أن تدريج الحمام بالوجه القبلى قد انقطع ، وأنه (كان متصلا إلى قوص وأسوان وعيذاب)(١١٨) .

ويرجع « ابن شاهين » هـذا الإنقطاع إلى خراب قوص ، إذ يقول مانصه : (فأما ماكان من قلعة الجبل إلى قوص ، فله مدة مديدة بطال لكثرة خراب قوص) (١١٩) .

والمعروف أنه لنقل إحدى البطاقات على خط واحد من خطوط الحمام الزاجل ، أن الرسالة لابد وأن تمر على جميع المراكز الواقعة على هـــذا الخط(١٢٠) ، وأن خراب أى مركز يقضى على مايتبعه من مراكز .

(ب) الخط من قلعة الجبل إلى ثغر الاسكندرية ، ويضم مركزين هما : منوف العليا ، ودمنهور الوحش(١٢١) .

(ج) الخط من قلعة الجبل إلى ثغر دمياط ، وبه مركزان : بنى عبيد ، وأشمون الرمان(١٢٢) .

(د) الخط من قلعة الجبل إلى السويس ، من طريق الحاج(١٢٣) .

(هـ) الخط من قلعة الجبل إلى بلبيس ، متصلا بالشام(١٢٤) .

ويقرر « القلقشندى » أن (أهَـلّ هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدريج إلى سائر الجهات)(١٢٥) .

هذا وينفرد « ابن شاهين » بذكر مسارح للحمام آخذة من قلعة الجبل

إلى الفرات ، وتمر أولا ببلبيس ، ثم الصالحية ، ثم قطيا ، ثم الواردة ، ثم غزة ، ومنها تتفرع المسارح إلى جهة دمشق ، وإلى غير جهتها(١٢٦) .

ثانيا : الأبراج الآخذة من غزة وما يتفرع عنها :

تتشعب مسارح الحمام الآخذة من غزة إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما المسارح الآخذة إلى غير جهة دمشق ، فمن غزة إلى الخليل ، ومن غزة إلى القدس ، ومن غزة إلى نابلس(١٢٧) .

وأما ما كان إلى جهة الشام ، فمن غزة إلى لُـدّ ، ومن لد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين ، ومن جينين تتشعب المسارح إلى غير جهة دمشق وإلى جهتها .

فأما ما كان إلى غير جهة دمشق ، فمن جينين إلى صفد .

وأما ما كان إلى جهة دمشق ، فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق ، (ومن كل واحدة من هذه المراكز إلى ما جاورها من المشاهير ، كمن بيسان إلى أذرعات ، ومن طفس إليها ؛ لإشعار والى الولاة)(١٢٨) .

ثالثا : الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرع عنها :

وتتشعب من دمشق إلى غير جهة حلب وإلى جهتها .

فأما المسارح التى إلى غير جهة حلب ، فمن دمشق إلى بعلبك ومن دمشق إلى القريتين(١٢٩) .

هذا وينفرد « ابن شاهين » بذكر مسارح أخرى من دمشق ، إذ يقول ما نصه : (ومن دمشق إلى صيدا ، وإلى بيروت ، وإلى تربلة ، ثم إلى طرابلس)(١٣٠) .

وأما ما كان إلى جهة حلب، فمن دمشق إلى قارا ، ثم من قارا إلى حمص، ومن حمص إلى حماة ، ومن حماة إلى المعرة ، ثم من المعرة إلى حلب(١٣١) .

رابعا · الأبراج الآخذة من حلب وما يتفرع عنها :

من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة الروم(١٣٢) ، ومن حلب إلى بهنسا ، ومنها إلى (بقية ماله شأن عما حولها)(١٣٣) ، ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقب ، ومنها إلى الرحبة .

ويذكر « العمرى » أن تدريج الحمام قد تعطل على أيامه من السخنة إلى قباقب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب ، ثم يسرح من قباقب إلى الرحبة)(١٣٤) .

وإلى جانب ما سبق ذكره من تسريح غير مباشر ، كان هناك تسريح مباشر بين قلعة الجبل والولايات الأخرى ، فإذا أراد السلطان أن يبعث برسالة عاجلة إلى دمشق — على سبيل المثال — أطلق حمامة من حماماتها ، فتصل إليها فى مرحلة واحدة ، فقد كان بدمشق حمام من مصر ، وبمصر حمام من دمشق (١٣٥) كما سبق أن ذكرنا .

ويقرر « المقريزى » فى صراحة أنه (قد بطل الحمام من سائر المملكة إلا ما كان ينقل من قطيا إلى بلبيس، ومن بلبيس إلى قلعة الجبل)(١٣٦) .

أما ما كان بين مصر وغيرها من الممالك الإسلامية ، فالملاحظ أنه ظل قائما ، وإن اقتصر على الأمور المستعجلة ، والسابق ذكرها .

أما عدا ذلك ، فقد حل البريد محله ،وفى أحايين كثيرة استخدم النظامان معاً ، ففى سنة (٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) — على سبيل المثال — (سقط الطائر

بفتح سيس ، بعث به الأمير « بيدمر » نائب الشام ، ثم قدم من الغد البريد من النواب بذلك)(١٣٧) .

غير أن النظامين مالبثا أن هويا تحت ضربات المغول وتخريبهم لمراكز الحمام ومحطات البريد فى أواخر القرن الثالث عشر للميلاد(١٣٨) .

(واشتغل أهل الدولة بما نزل بالبلاد من المحن ، وما دهوا به من كثرة الفتن ، عن إقامة البريد ، فاختل بانقطاعه طريق الشام خللا فاحشاً . والأمر على ذلك إلى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان عشرة وثمانمائة)(١٣٩) .

الحواشى

(١) فى الأصل : « نحو » .

(٢) الفاكهى : مناهج السرور والرشاد،ورقة ١٤٢أ : ١٥٠ ، الجاحظ ، الحيوان: ج ٣ ، ص ١٤٤ : ١٤٦ ، ١٧٠ ، الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ، ج ١ ، ٣١٤ ، ابن سيده : المخصص ، ج ٨ ، ص ١٦٨ : ١٦٩ ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ١٠ ، ص ٢٦٨ ، ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٢١ : ٢٥ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ، ج٣ ، ص١٤٦ ــ ١٤٧ ، وأنظر أيضاً : الدميرى : حياة الحيوان ، ج١ ، ص ٣٢٠ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب ، ج١٠ ، ص ٢٦٨ ، وأنظر أيضاً : الدميرى : حياة الحيوان ، ج ١ ، ص ٣١٤ . (وعن خصائص كل نوع أنظر : النويرى :نهاية الأرب ،ج ١ ص ٢٦٨ : ٢٦٩) .

(٥) النويرى : نهاية الأرب ، ج١٠ ، ص ٢٦٩ ، الصيرفى : نزهة النفوس ، ج١ ، ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٩٢ هـ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب ، ج١٠ ، ص ٢٦٩ — ٢٧٠ ، وأنظر أيضاً : الجاحظ: الحيوان ، ج٣ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، الدميرى : حياة الحيوان ، ج١ ، ص ٣١٤ .

(٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص ٣٨٩ ، وأنظر أيضاً : الجاحظ : الحيوان ج٣ ، ص ١٤٦ — ١٤٧ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٨) القزويني : عجائب المخلوقات ،ورقة ٣١٤ ، ابن سيده : المخصص ، ج٨،ص ١٧٠،

(٩) حفظ العرب فى فترة الجاهلية والإسلام أنساب الحمام ، شأن حفظهم لأنساب خيولهم، فهم بذلك يكونون قد سبقوا غيرهم من العباسيين والفاطميين . أنظر : الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٠٩ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ،ص ٣٩٠ ،ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ .

(١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ،ص ٣٩٠ ،وأنظر أيضاً : الجاحظ :الحيوان، جـ٣ ، ص ٢٠٩ : ٢١١ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ١٠ ، ص ٢٧١ .

(١١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦ — ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢١ ، القلقشندى صبح الأعشى ، جـ ١٤ ،ص ٣٩٠ . هذا ويقرر القلقشندى « نفس الجزء والصفحة » أنه سبق القاضى « محيي الدين عبد الظاهر » إلى التصنيف فى الحمام أبو الحسن ابن ملاعب الفوارس البغدادى » ، (فصنف فيه كتاباً للناصر لدين الله الخليفة العباسى ببغداد ، وذكر فيه أسماء الطائر ، ورياشه ، والوشوم التى توسم فى كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعد المسافات التى أرسلت فيها ، وذكر شىء من نوادرها وحكاياتها ، ومايجرى هذا المجرى. وأظن أن كتاب « القاضى الفاضل محى الدين عبد الظاهر » نتيجة عن مقدمته) .

(١٢) إنقسم المؤرخون إلى فريقين بالنسبة للسنة التى اتخذ فيها نور الدين « الحمام الهوادى»، فالفريق الأول يقرر أن ذلك كان سنة (٥٦٥ هـ/١١٦٩م) مثل : ابن شاهين: زبدة كشف الممالك ، ص١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٦ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩٠ .

أما الفريق الثانى فيقرر : أن ذلك كان سنة (٥٦٧ هـ/١١٧١ م) ويمثله : المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ق ١ ، ص ٥٠ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ، ابن الأثير : الكامل ، جـ١١ ، ص ١٥١ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، الباهر ، ص ١٥٩ ، أبو شامة :الروضتين، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٥٢٠ (نقلا عن ابن الأثير)،أبو الفدا : المختصر ، جـ٣ ، ص ٥٢ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ .

(١٣) إبن الأثير : الباهر ، ص ١٥٩ ، الكامل ، جـ١١ ، ص ١٥٢ ، حوادث سنة٥٦٧ هـ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ق٢ ؛ص٥٢٠ ، حوادث سنة٥٦٧هـ،السيوطى: حسن المحاضرة ، جـ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ .

(١٤) ابن الأثير : الباهر ، ص١٥٩ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٢٠ ، حوادث سنة ٥٦٧ هـ .

(١٥) ابن الأثير : الباهر ، ص ١٧١ ،وانظر :الأنصارى : تفريج الكروب ،ص١٤ .

(١٦) الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٥٦ .

(١٧) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٦ .

(١٨)،(١٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١٠ ، ص ١٢٤ ، حوادث سنة ٧٤٦ هـ .

(٢٠) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق٣ ، ص ٧٢٥ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .أماعند ابن تغرى بردى : « النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٥٦ ؛ حوادث سنة ٧٤٧ هـ » (قبلغ مصروف الحمام الحضير خاصة سبعة آلاف درهم) .

(٢١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص٧٣٩ — ٧٤٠،حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤٠ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٣) أنظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ١٠ ، ص ١٧٠ ، حوادث سنة ٧٤٧ هـ ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤١ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ .

(٢٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ٣ ، ص ٧٤٥ ، حوادث سنة ٧٤٨ هـ.

(٢٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص١٣٨ ، حوادث سنة٥٩٢هـ : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢٠ .

(٢٦) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، حوادث سنة٦٢٢هـ، وانظر أيضاً : ابن واصل : مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ١٦٤ ، حوادث سنة ٦٢٢ هـ .

(٢٧) أنظر : ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٤٩ ، حوادث سنة ٦٤٠ هـ . كذا المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ق١ ص ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٧٩ هـ .

(٢٨) أنظر : المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ق٢ ، ص ٦٣٥ ، حوادث سنة ٧٤٦ هـ.

(٢٩) أنظر : المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٧٢٧هـ .

(٣٠) أنظر : ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ١٣ ، المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ١ ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٧٢٧ هـ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤٣ .

(٣١) ابن بطوطة : تحفة النظار ، ص ٤٧ — ٤٨ .

(٣٢) : المقريزى : السلوك جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٢ ، حوادث سنة ٦٣٦ هـ .

(٣٣) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٦، حوادث سنة ٦٣٧هـ، وانظر : المقريزى: السلوك ، جـ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٤ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٤) ، (٣٥)، (٣٦) المقريزى : السلوك ، جـ ١ ، ق ٢ ، ص ٢٨٥ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٧) ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٦ — ٣٣٧ ، حوادث سنة ٦٣٧ هـ .

(٣٨) و(٣٩) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ق ١ ، ص١٣٣ ، حوادث سنة ٧٦٨ هـ

(٤٠) انظر : الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ١ ، ص ٣٠٩ ، حوادث سنة ٧٩٢هـ ، المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ق ٢ ، ص ٧٢٠ ، حوادث سنة ٧٩٢ هـ .

(٤١) انظر : الصيرفى : نزهة النفوس، جـ٢،ص ١٩٦ : ٢٠١،حوادث سنة ٨٠٧هـ.

(٤٢) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق ١ ، ص ٢٠٨ ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ .

(٤٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق١ ، ص٢٢٨ ، حوادث سنة ٧٢١ هـ .

(٤٤) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ق٢ ، ص ٣٩٩ ، حوادث سنه ٧٣٦ هـ .

(٤٥) الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٣٦٠ — ٣٦١، حوادث سنة ٥٨٦هـ ،وانظر أيضاً :« نفس المصدر » ، ص ٤١٣ : ٤١٤ ، ابن شداد : النوادر السلطانية، ص ١٣١ ، ١٣٥ ، ١٤٣ ، حوادث ٥٨٦ هـ .

(٤٦) المقريزى : خطط ، جـ٢ ص٢١٠ .

(٤٧) أبوشامة : الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٥٢٠ .

(٤٨) المقريزى : خطط ،جـ١،ص٢١٥،وانظر أيضا : أبوشامة : الروضتين،جـ١،ق٢ ص٥٢٠، ابن الأثير : الباهر ،١٥٩ .

(٤٩) انظر : المقريزى : السلوك ،جـ١ ،ق٢،ص ٣٥١، حوادث سنه ٦٤٧هـ ، الخطط، جـ١ ، ص ٢٢٠ .

(٥٠) بيبرس : زبدة الفكرة ، جـ٩، ورقة ١٧٢ ا ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، وانظر أيضاً: المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص٦٩١ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن الفرات : تاريخه ،م٧،ص٢١٥ ،حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، ابن أيبك : الدرة الزكية، جـ٨ ،ص ٢٤٤ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(٥١) انظر : ابن أيبك: الدرةالزكية،جـ٨،ص٢٤٤،حوادث سنة ٦٨٠هـ،ابن أبى الفضائل: النهج السديد،ص٣٣١،المقريزى: السلوك ،جـ١،ق٣،ص٦٩٧ (وكذا حاشية رقم (١) من نفس الجزء والصفحة) كذا أنظر : بيبرس :زبدة الفكرة،جـ٩،ورقة ١٧٨ا،حوادث سنة ٦٨٠هـ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص٣٧٥ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٥٢)المقريزى : خطط،جـ٢،ص٢٣٠، السيوطى : حسن المحاضرة ،جـ٢،ص ٢٢١ .

(٥٣) المقريزى : السلوك ، جـ١،ق٢،ص ٣٥٢ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ ، ابن أيبك ، الدر المطلوب ، ص ٣٦٥ — ٣٦٦ ، حوادث سنة ٦٤٧ هـ .

(٥٤) المقريزى : السلوك ، جـ٤،ق١، ص١٧٤ ، حوادث سنة ٨١٤ هـ .

(٥٥) الصيرفى : نزهة النفوس ، جـ٢،ص٣٠٨ ، حوادث سنة ٨١٥ هـ .

(٥٦) الصيرفى : نزهة النفوس ،جـ٢،ص٣٨٤، حوادث سنة ٨٢٠ هـ

(٥٧) المقريزى : السلوك ، جـ١،ق٣،ص٦٩٦ — ٦٩٧ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(٥٨) الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٧٩ ، وانظر مثالا لذلك عند : النويرى : نهاية الأرب ، جـ١ ، ص ٢٧٠ .

(٥٩) المجسة : موضع اللمس (القاموس المحيط) .

(٦٠) القرطمتان : قطعتان على أصل منقار الحمام . (النويرى : نهاية الأرب ، جـ١٠ ، ص ٢٧٠ ، حاشية (٢)) .

(٦١) الجؤجؤ : الصدر (قاموس محيط المحيط) .

(٦٢) الكزازة : اليبس (نهاية الأرب ، جـ١٠،ص٢٧٠، حاشية (٣)) .

(٦٣) غير تفنين : غير اختلاط . (نهاية الأرب ، جـ١٠،ص٢٧٠، حاشية (٥)).

(٦٤) النويرى : نهاية الأرب ،جـ١٠،ص٢٧٠ — ٢٧١ ، وأنظر أيضا : ابن سيده: المخصص ، جـ٨ ، ص ١٧٠ .

(٦٥) ابن سيده : المخصص ،جـ ٨ ، ص ١٧١ .

٦٦) يقرر القلقشندى : « صبح الأعشى،جـ٢،ص٩١ — ٩٣» أن القصد فى ألوان الحمام ستة ، الأول البياض ، والثانى الخضرة ، والثالث الصفرة ، والرابع الحمرة ، والخامس السواد والسادس الثمرى . وأن تعداد الرياش المعتبرة ، فهو أن يكون فى الجناحين عشرين ريشة ، وأما الذنب فالمعتبر فيه اثنتاعشرة ريشة . كما أورد تفصيل كل ذلك ، وانظر الجاحظ : الحيوان جـ٣ ، ص ٢٠٢ ، ٢٤٤ ، ٢٥١ .

(٦٧) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤،ص٣٨٩ .

(٦٨) الأخضر : ما كان لون الريحان والبقول ، والمنمر ، ما كانت به نقط بيضاء وأخر سوداء أنظر : الجاحظ : الحيوان،جـ٢،ص٧٩ — ٨٠ ، جـ٣،ص٢٤٥ — ٢٤٦ ، القلقشندى: صبح الأعشى ،جـ٢،ص٩١ — ٩٢ ، وانظر أيضا : الفاكهى : مناهج السرور ، ق١٤٧ ب : ١٤٨ ب .

(٦٩) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩٠ .

(٧٠) و(٧١) الجاحظ : الحيوان ، جـ ٣ ، ص٢٢٣ .

(٧٢) الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٧٩ .

(٧٣) « عن أسلوب فطام الحمام » انظر : الجاحظ:الحيوان ،جـ٣،ص١٥٣ ،النويرى: نهاية الأرب ، جـ١٠ ، ص ٢٧٢ : ٢٧٣ .

(٧٤) انظر : ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٥٣ : ٥٧ .

(٧٥) و (٧٦) الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ، ص ٢٢٥ .

(٧٧) الجاحظ : الحيوان ،جـ٣،ص٢٧٤ .

(٧٨) الجاحظ : جـ٣،ص٢٧٨ — ٢٧٩ .

(٧٩) يقرر الجاحظ : « الحيوان،جـ٣،ص٢٧٧ — ٢٧٨» أنه بين القص والنتف بون بعيد ، وأن بعض الحمامين كانوا يفضلون القص على النتف ، فالقص وإن كثر (لا يوجع ولا يقرح مغارز قصب الريش ، والنتف يوهن المنكبين . فاذا نتف الطائر مراراً لم يقو على الغاية ، ولم يزل يوهن المنكبين ... وأنه ربما ليبلغ مضرته أن الذكر لا يجيد الإلقاح ، والأنثى لا تجيد القبول ، وربما تنفت الأنثى وقد احتشت بيضا وقد قاربت أن تبيض فتبطىء بعد وقتها الأيام، وربما أضر ذلك بالبيض) .

(٨٠) يضيف الجاحظ : « الحيوان ،جـ٣ ،ص٢٧٥» أن الأجود أن يخرج الذكر والأنثى معا إلى السطح وهما مقصوصان الريش ،وذلك حتى يألفا المكان سويا ، ثم يطير الزجال أحدهما قبل صاحبه ، ثم يصنع بالثانى كما صنع بالأول .

(٨١) الجاحظ الحيوان،جـ٣،ص٢٨١ .

(٨٢) الجاحظ : الحيوان ،جـ٣،ص٢٨٣ .

(٨٣) الجاحظ : الحيوان ، جـ٣ ،ص٢٨٠ .

(٨٤) ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص٥٨ — ٦١ .

(٨٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ ١٤ ، ص ٣٩١ ، وانظره : جـ٢ ، ص ٩٧ ، وانظر أيضا : ابن الاثير : الباهر ، ص١٥٩ :

(٨٦) ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص٦٣ .

(٨٧) المقريزى : خطط ، جـ٢،ص٢٣٠، وانظر أيضا: سعداوى : نظام البريد،١٤١،

(٨٨) كذا عند المقريزى : « خطط ،جـ٢،ص٢٣٠، وهى الصيغة الصحيحة ، أما عند السيوطى :«حسن المحاضرة ،جـ٢،ص٢٢١» (تبن) . ويعلق المقريزى «خطط ،جـ٢،ص٤١٢» على التسمية الاخيرة بقوله : (عرف قديما بالبئر والجميزة ،وعرف بمسجد تبر ، وتسميه العامة مسجد التبن وهو خطأ ، وموضعه خارج القاهرة قريبا من المطرية) .

(٨٩) المقريزى : خطط ، جـ٢ : ص ٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

(٩٠) المقريزى: خطط ، جـ٢،ص٢٣٠، والجندارية : فئة من مماليك السلطان أو الامير، وهى مركبة من لفظين فارسيين ، أحدهما «جان» ، ومعناه سلاح ، والثانى «دار» ، ومعناه ممسك ، فيكون المعنى « ممسك السلاح » . انظر: انقلقشندى : صبح الاعشى، جـ٥،ص٤٠٧، المقريزى : السلوك، جـ١ ، ق١ ،ص١٣٣، (حاشية (١)) ، Dozy : Supp. Dict.AR.

(٩١)و(٩٢) ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٦٥ .

(٩٣) المقريزى . خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣ ، وانظر أيضاً : السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ٢٢١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص ٢٣٤ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤٠ .

(٩٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

(٩٥)و(٩٦)و(٩٧) المقريزى : خطط ، جـ٢ ،ص٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة جـ٢ ، ص ٢٢١ ، نعمان أنطون : الطائر الغريد ، ص ١٠ .

(٩٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٢٨ — ١٢٩ .

(٩٩) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢١٠ ، ٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص٢٢١ .

(١٠٠) أى علامة سلطانية .

(١٠١) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص ٢٣٤ .

(١٠٢) هو : « محي الدين أبو الفضل عبد الله بن رشيد الدين أبو محمد بن عبد الظاهر» (٦٢٠هـ : ٦٩٣هـ// ١٢٢٣م : ١٢٩٢م) رئيس ديوان الإنشاء ، الذى كان له الفضل فى وضع كثير من اصطلاحات ديوان الإنشاء ، ونظمه ، وبقيت نظمه واصطلاحاته معمولا بها فى مصر والشام إلى أن فتح العثمانيون مصر . وقد أرخ لثلاثةمن السلاطين ، هم : «الظاهر بيبرس » ، « المنصور قلاوون » ، « والأشرف خليل بن قلاوون » . ويعتبر تاريخه على جانب كبير من الأهمية ، وذلك لأنه عاصر هؤلاء السلاطين ، وكان كاتب السر عندهم ، ولأنه دون النصوص الأصلية للمراسلات والمعاهدات .

ومن مؤلفاته : تاريخ المنصور قلاوون الذى أسماه « تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور » ، تاريخ الأشرف خليل : « الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانيـــة الأشرفية » ، وله في التاريخ كتاب باسم : « كتاب الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية بالقاهرة » ، وكتاب : « تمائم الحمائم » ، فضلا عن مقامة فى مصر والنيل ، وكثير من الرسائل . (وعن المزيد من ترجمته ، انظر :مراد كامل : تشريف الأيام ، ص ٩ : ٣٤) . « وانظر الحاشية التالية » .

(١٠٣) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ،ص٢٢١ ، والمقريزى ،خطط ،جـ٢ ،ص٢٣٠ هذا ويضيف « السيوطى » (نفس الجزء ، والصفحة) أن « ابن عبد الظاهر » قال : (وأنا ما كتبتها قط إلا ببسملة للبركة) .

(١٠٤) يقرر السيوطى : « حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢١ » والمقريزى : «خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ » أن الأوائل كانوا يؤرخون بالساعة واليوم لا بالسنين ، ويضيف المقريزى « نفس الجزء والصفحة » إلى ذلك بقوله : (وأنا أؤرخها بالسنة) .

(١٠٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٣٤ .

(١٠٦) كذا عند المقريزى : « خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠» ، أما عند السيوطى: «حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢١ » « ولايحمدى » .

(١٠٧) السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ ، وانظر المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ .

(١٠٨) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٧ ، ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(١٠٩) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

(١١٠) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٧ ، ص ٢٣٥ .

(١١١) الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٣٦٠ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، وانظر أيضاً: غنام : الحمام وتربيته ، ص ٩٨ .

(١١٢) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص٢٣٠ ، السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص٢٢١ ، وانظر أيضاً : ميخائيل بن نقولا : مسابقة البرق ، ص ٦٦ : ٦٧ . وانظر أمثلة لوضع البطائق تحت أجنحة الحمام عند كل من : بيبرس : زبدة الفكرة ، جـ٩ ، ورقة ١٧٢ حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ١٠ ، ص ٢٩٧ ، ابن الأثير : الباهر، ص ٣٦ — ٣٧ ، ابن أيبك : الدر المطلوب ، ص ٣٣٦ ، أبو شامة : الروضتين ، جـ١ ، ق ٢ ،.ص٦٣١ ، حوادث سنة ٧٥٠ هـ ، المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ق ٢٠ ، ص ٢٨٥، حوادث سنة ٦٣٧ هـ ، جـ١ ، ق ٣ ، ص ٦٩٢ ، ٦٩٦ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، جـ٢ ، ق١ ، ص ٢٠٨ ، حوادث سنة ٧٢٠ هـ ، ص ٢٢٨ ، حوادث ٧٢١ هـ ، ابن الفرات : تاريخه ، م ٧ ، ص ٢١٥ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ ، الأصفهانى : الفتح القسى ، ص ٣٦٠، ٣٧٠ ، ص ٤١٤ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٣١ ، حوادث سنة ٥٨٦ هـ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ .

(١١٣) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ، النويرى : نهاية الارب ، جـ١٠ ، ص ٢٨٠ ، وانظر ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٤١ .

(١١٤) النويرى : نهاية الارب ، جـ١٠ ، ص ٢٨٠ ، وانظر : السيوطى : حسن المحاضرة ، جـ٢ ، ص ٢٢٣ .

(١١٥) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢١٠ ، وانظر : القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩٢ .

(١١٦)و(١١٧) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ، وانظر أيضا: ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، سعداوى : نظام البريد ، ص ١٣٩ .

(١١٨) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص١٩٦ — ١٩٧ ،القلقشندى :صبح الاعشى، جـ١٤ ، ص ٣٩٢ .

(١١٩) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .

(١٢٠) إنظر : المقريزى : خطط ، جـ٢ ،ص ٢١٠ ، سعداوى: نظام البريد ،ص ١٤٠

(١٢١) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩٢ .

(١٢٢) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ ، العمرى : التعريف بالمصطلح ص ١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشي ، جـ١٤ ، ص ٣٩٢ .

(١٢٣) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص٣٩٢ .

(١٢٤) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ .

(١٢٥) القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص٣٩٢ .

(١٢٦) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .

(١٢٧) كذا عند كل من : العمرى : « التعريف بالمصطلح ، ص١٩٧ » ،القلقشندى : « صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص٣٩٣» : أما عندابن شاهين:«زبدة كشف الممالك، ص١١٧»: (ثم إلى غزة ، والى القدس الشريف ، والى نابلس ، والى الخليل عليه السلام ، ثم الصافية ، ثم الكرك) .

(١٢٨) العمرى : التعريف بالمصطلح ، ص١٩٧ ، القلقشندى : صبح الاعشى،جـ١٤، ص٣٩٣ ، وانظر : ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص١١٧ .

(١٢٩) كذا عند القلقشندى : « صبح الاعشى ، جـ١٤ ،ص٣٩٣ » . أماعند العمرى: « التعريف بالمصطلح ، ص ١٩٧ » : (ثم من من دمشق يسرح الحمام الى بعلبك ، ويسرح إلى قارا ، ويسرح إلى القريتين) .

(١٣٠) ابن شاهين : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٧ .

(١٣١) كذا عند كل من : العمرى : « التعريف بالمصطلح ،ص ١٩٧ » ، القلقشندى: « صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص٣٩٣» . أماعند ابن شاهين : «زبدة كشف الممالك ،ص١١٧»: (ثم إلى دمشق ، ثم إلى بعلبك ، والى قارا ، ثم إلى حمص ، ثم إلى حماة ، ثم إلى المعرة ، ثم إلى خان تومان ، ثم إلى حلب) .

(١٣٢) تعرف كذلك « بقلعة المسلمين » . انظر: العمرى : التعريف بالمصطلح،ص١٩٧ ، القلقشندي : صبح الاعشي ، جـ١٤ ، ص ٣٩٤ .

(١٣٣) و(١٣٤) العمرى : التعريف بالمصطلح ،ص١٩٧ ،وانظر أيضا :القلقشندى : صبح الاعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩٤ .

(١٣٥) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٩١ .

(١٣٦) المقريزى : خطط ، جـ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٣٧) المقريزى : السلوك ، جـ٣ ، ق ١ ، ص ٢٣٧ ، حوادث سنة ٧٧٩ هـ ؛ وانظر : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢١٠ ، ابن أيبك : الدرة الزكية ، جـ٨ ، ص ٢٤٥ ، حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

(١٣٨) انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص ٣٧٠ ، المقريزى : خطط ، جـ ١ ، ص ٢٢٦ ، جـ٢ ، ص ٢٣١ . هذا ويقرر الأنصارى «تفريج الكروب، ص ١٢ — ١٣ » أنه كان فى أول الدولة التركية عند وقوع الحرب بين ملوك الديار المصرية وبين التتر أناس مرتبون على رءوس الجبال ، مرصدون لذلك بمال على السلطان ، مركزون من الفرات إلى غزة ، فإذا حدث حادث من جهة التتر أوقدوا النار ودخنوا ، فيتصل ذلك فى أسرع وقت من الفرات إلى غزة ... ثم يرسل الحمام من غزة إلى مصر ، فيعلم خبر ذلك فى اليوم الواحد ، ثم بطل ذلك بوقوع الصلح بين التتر وملوك الديار المصرية وزالت معالمه) . وعن « المناور » : انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(١٣٩) المقريزى : خطط ، جـ١ ص ٢٢٦ .

المـــراجع

أولا ـ المخطوطات :

١ ـ بيبرس الدوادار :

ـ زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة .

« الجزء التاسع » (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٤٠٢٨)

٢ ـ الفاكهى (الشيخ زين الدين عبد القادر أحمد بن على) :

ـ مناهج السرور والرشاد والرمى والسباق والجهاد

(مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٢٧٩٩ [١٠] عروس) .

٣ ـ القزوينى :

ـ عجائب المخلوقات

(مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة رقم ٢٦٢٢١) .

ثانياً ـ المصادر المطبوعة :

١ ـ الأصفهانى (العماد الكاتب) :

ـ الفتح القسى فى الفتح القدسى .

تحقيق : محمد محمود صبح . (ط . مصر سنة ١٩٦٥)

ـ الأنصارى (عمر بن ابراهيم الأوسى)

تفريج الكروب فى تدبير الحروب

تحقيق : جورج سكانلون (القاهرة سنة ١٩٦١)

٢ ـ ابن الأثير (أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى) :

— الكامل فى التاريخ . (ط . مصر سنة ١٢٩٠ هـ)
— التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية بالموصل .
تحقيق : عبد القادر أحمد طليمات (ط . مصر سنة ١٩٦٣)

٣ — ابن أبى الفضائل (مفضل) :
— النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد .
(ط . باريس سنة ١٩١١ : ١٩٣٠)

٤ — ابن أيبك (أبى بكر بن عبد الله بن أيبك الدوادارى) :
كنز الدرر وجامع الغرر
— ج ٧ : الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور
(ط . مصر ١٣٩٢ هـ/١٩٧٢ م)
— ج ٨ : الدرة الزكية فى أخبار الدولة التركية
تحقيق : أولرخ هارمان (ط . مصر ١٣٩١ هـ/١٩٧١ م)

٥ — ابن بطوطة :
— تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار
(ط . مصر سنة ١٣٢٢ هـ)

٦ — ابن تغرى بردى الأتابكى (جمال الدين أبى المحاسن يوسف) :
— النجوم الزهرة فى ملوك مصر والقاهرة
١٢ جزء (ط . كاليفورنيا سنة ١٩٠٩)
ج ١٣ ، ١٤ (ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧٢)

٧ — ابن سيده (أبى الحسن على بن اسماعيل النحوى الأندلسى) :
— المخصص (بولاق : ١٣١٨ هـ)

٨ ــ ابن شاهين (غرس الدين خليل) :
ــ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك .
تحقيق : بولس راويس . (ط . باريس ١٨٩٤)

٩ ــ ابن شداد (بهاء الدين) :
ــ النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية
تحقيق : جمال الدين الشيال (ط . مصر ١٩٦٤)

١٠ ــ ابن عبد الظاهر (محي الدين) :
ــ تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور
تحقيق : مراد كامل (ط . مصر ١٩٦١)

١١ ــ ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم) :
ــ مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب
جـ ١ : ٣ تحقيق : جمال الدين الشيال
(ط . مصر ١٩٥٣ ــ ١٩٦٠)

جـ ٤ ، تحقيق : حسنين محمد ربيع
مراجعة : سعيد عبد الفتاح عاشور
(ط . مصر ١٩٧٢)

١٢ ــ أبو شامة (شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسى) :
ــ الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية
تحقيق : محمد حلمى محمد أحمد (ط . مصر ١٩٦٢)

١٣ ــ أبو الفدا (عماد الدين اسماعيل) :
ــ المختصر فى أخبار البشر (ط . بيروت)

١٤ — الجاحظ (أبى عثمان عمرو بن بحر) :
— الحيوان
تحقيق : عبد السلام هارون
(ط . مصر ١٣٥٦ هـ — ١٩٢٨ م)

١٥ — الدميرى (كمال الدين) :
— حياة الحيوان الكبرى (ط. مصر ١٣١٩ هـ)

١٦ — السيوطى (جلال الدين السيوطى الشافعى) :
— حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة (ط. مصر ١٢٩٩ هـ)

١٧ — الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود) :
— نزهة النفوس والأبدان فى تواريخ الزمان .
تحقيق : حسن حبشى
صدر منه جزءان (ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧١)

١٨ — العمرى (القاضى شهاب الدين) :
— التعريف بالمصطلح الشريف (ط. مصر ١٣١٢ هـ)

١٩ — القلقشندى (أبى العباس أحمد بن على) :
— صبح الأعشى فى صناعة الإنشا
١٤ جزء . (ط . القاهرة ١٩١٢ : ١٩١٩)

٢٠ — المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) :
— السلوك لمعرفة دول الملوك
جـ ١ ، ٢ (فى ستة أقسام) تحقيق : محمد مصطفى زيادة
(ط. مصر ١٩٤٢ : ١٩٥٨)

ج ٣ ، ٤ (فى ستة أقسام)
تحقيق : سعيد عبد الفتاح عاشور
(ط . مصر ١٩٧٠ : ١٩٧٣)

ـ المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار
(ط. بولاق ١٢٧٠ هـ)

٢١ ـ النويرى (شهاب الدين أحمد) :
ـ نهاية الأرب فى فنون الأدب (ط. مصر ١٩٢٨ : ١٩٣٨)

ثالثا : المؤلفات الحديثة :

١ ـ سعداوى (نظير حسان) :
نظام البريد فى الدولة الإسلامية (ط. مصر ١٩٥٣)

٢ ـ غنام (عبد الغنى) :
الحمام وتربيته (ط . مصر ١٩٣٦)

٣ ـ ميخائيل بن نقولا بن إبراهيم صباغ :
مسابقة البرق والحمام فى سعاة الحمام
(نقله من الفرنسية إلى العربية « سلوستر دساسي »)
(ط . باريس ١٨٠٥)

٤ ـ نعمان أنطون :
الطائر الغريد فى وصف البريد (ط . مصر ١٨٩٠)